خواطر عن تونس بعد الانتفاضة

□ رشاد أبو شاور

تونس ١٩٧٣

في آذار من ذلك العام التقيتُ بتونس الخضراء. كانت تلك أوّلَ مرّةٍ أزور فيها بلدًا عربيًا مغاربيًا. والمناسبة هي انعقادُ مؤتمر اتّحاد الأدباء العرب لأوّل مرّةٍ في بلدٍ مغاربيّ.

فرحةُ اللقاء في قاعة الاستقبال في مطار تونس، والفوضى المحبَّبة التي أشاعها أعضاءُ الوفود العربيّة القادمون من مصر ولبنان (الوفدان اللبنانيّ والفلسطينيّ وصلا معًا من بيروت على الطائرة نفسها)، وسعادةُ الكتّاب التونسة بالحدث لأنّ المؤتمر ينعقد في بلدهم وهم أصحابُ السبق: تلك لحظةٌ لا تُنسى.

تنقّلنا في ربوع الديار التونسيّة، من العاصمة تونس إلى القيروان العريقة، فسوسة، فبنزرت التي زرنا مقبرتَها حيث مئاتُ الأضرحة لشهداءَ سقطوا في مواجهة الاستعمار الفرنسيّ. الرئيس التونسيّ آنذاك، المجاهدُ الأكبر (هكذا كان يصف نفسَه ويلقَّب إعلاميًا)، خَطَبَ في الوفود، مروِّجًا لأفكاره، ولا سيّما لمبدإه السياسيّ، «خذْ وطالِبْ.» وهاجم الرئيس جمال عبد الناصر. ولم يغبْ عن باله أن يلوم الفلسطينيين الذين رموْا موكبَه بالحجارة والبندورة في مخيّم عقبة جبر، أحدِ مخيّمات أريحا.

بعد عودتي إلى بيروت كتبتُ مقالة بعنوان «تونس خضراء. . ولكن!» والاستدراك كان ردًا على بورقيبة وخطابه السياسيّ؛ فخضرةُ تونس تنتقص من بهائها هيمنةُ سي الحبيب بورقيبة وحزبِه الواحد!

نُشرت المقالة في عدد خاصّ أصدرتْه مجلةُ الآداب حول المؤتمر ووقائعِه والخلافاتِ التي برزتْ فيه. وكان صاحبَ الموقف الأبرز، نقابيًا وسياسيًا، هو الصديقُ الكبيرُ الدكتور سهيل إدريس، الذي انحزتُ إلى موقفه وتبعتُه في مغادرة القاعة. وكنتُ الوحيدَ من الوفد الفلسطينيّ الذي أعلن انحيازَه.(١)

تونس ١٩٧٧

في ذلك العام عُقد المؤتمرُ الثاني للاتّحاد العامّ للكتّاب والصحفيين الفلسطينيين في تونس. وكانت تلك هي زيارتي الثانية لها في المؤتمر تمكّن الكتّابُ والصحفيّون الفلسطينيّون المعارضون لنهج التسوية من الانتصار ديمقراطيًا، واستحوذوا على الأمانة العامّة التي اجتمعتْ وانتخبت الأستاذ ناجي علّوش أمينًا عامًا، والصحفيَّ الكبيرَ حنّا مقبل أمينًا للسرّ. وكنتُ أحد الذين انتُخبوا لعضويّة الأمانة العامّة.

تلك كانت واحدةً من أبرز معارك الكتّاب والصحفيين الفلسطينيين في مواجهة الانحراف، والهيمنةِ على الثقافة الفلسطينيّة، وتكريسِ المثقف الفلسطيني مزوِّرًا وخادمًا لنهج سياسيٍّ أودى بقضيّتنا إلى ما آلت إليه من تردٍّ وخراب. وكانت تونس، من جديد، مسرحًا لهذه المعركة.

تونس ١٩٨٢

بيروت حوصرتْ. صمدتْ واستبسلتْ. لكنها خُذلتْ عربيًا رسميًا، وآلت المفاوضاتُ إلى اتفاقٍ مع أمريكا على خروج قوّات منظّمة التحرير الفلسطينيّة إلى بلادٍ عربيّةٍ بعيدةٍ عن فلسطين (باستثناء سورية).

قبل توزيع القوّات الفلسطينيّة، عُقدت اجتماعاتٌ، واستُمزج كوادرُ الثورة في أيّ المنافي يودّون التوجّهَ إليها، فاخترتُ التغريبةَ البحريّةَ التونسيّة، رغم التحذير بأنها ستكون رحلةً خطرة، إذ ستستمرّ سبعة أيّام. بقينا ستة أيّام في البحر، وفي فجر اليوم السابع تهادت السفينة «سولفرين» وهي تدخل ميناءَ بنزرت. وبدأنا نرى مشهدًا لا يغيب من الذاكرة: حشودًا هائلةً متداخلة، تبدو جسدًا واحدًا، وصوتًا واحدًا هادرًا، يدوّي ويمسح بأنفاسه الحّارة آخرَ خيوط الليل.

جموعٌ تونسيّة وفدتْ من أرجاء البلاد كافّةً لتستقبل الفلسطينيين، وتُشعرهم أنّهم ليسوا غرباء ولن يكونوا غرباءَ في تونس ووسط تلك الأجواء أصررنا على أن نهبط لنلتقي بشعب تونس، ورفعنا كلاشنكوفاتنا، معلنين أنّنا نرفض الهزيمة

١ ـ تعليق الآداب كان وفد اتّحاد الكتّاب اللبنانيين إلى المؤتمر قد قرّر إثارةَ موضوع الاعتقالات والضيْم التي طاولتْ كتّابًا ومثقفين، ولاسيّما في مصر والبحرين والسعوديّة، واقترح رئيسُه (سهيل إدريس) «ميثاقَ شرف» يتعهّد بموجبه الاتحادُ العامُّ للأدباء العرب بشجب الإرهاب الفكريّ لكنْ حين طُرح «الميثاقُ» على التصويت سَقَطَ لكون أكثر الاتحادات تابعةً للسلطة فانسحب الوفدُ اللبنانيّ من المؤتمر، وتبعه عددٌ من المثقفين العرب للتفاصيل، راجع سهيل إدريس، **في معترك القوميّة والحرّيّة** (بيروت دار الآداب، ط ٢، ١٩٨٣)، ص ١٦١ ـ ١٧٦

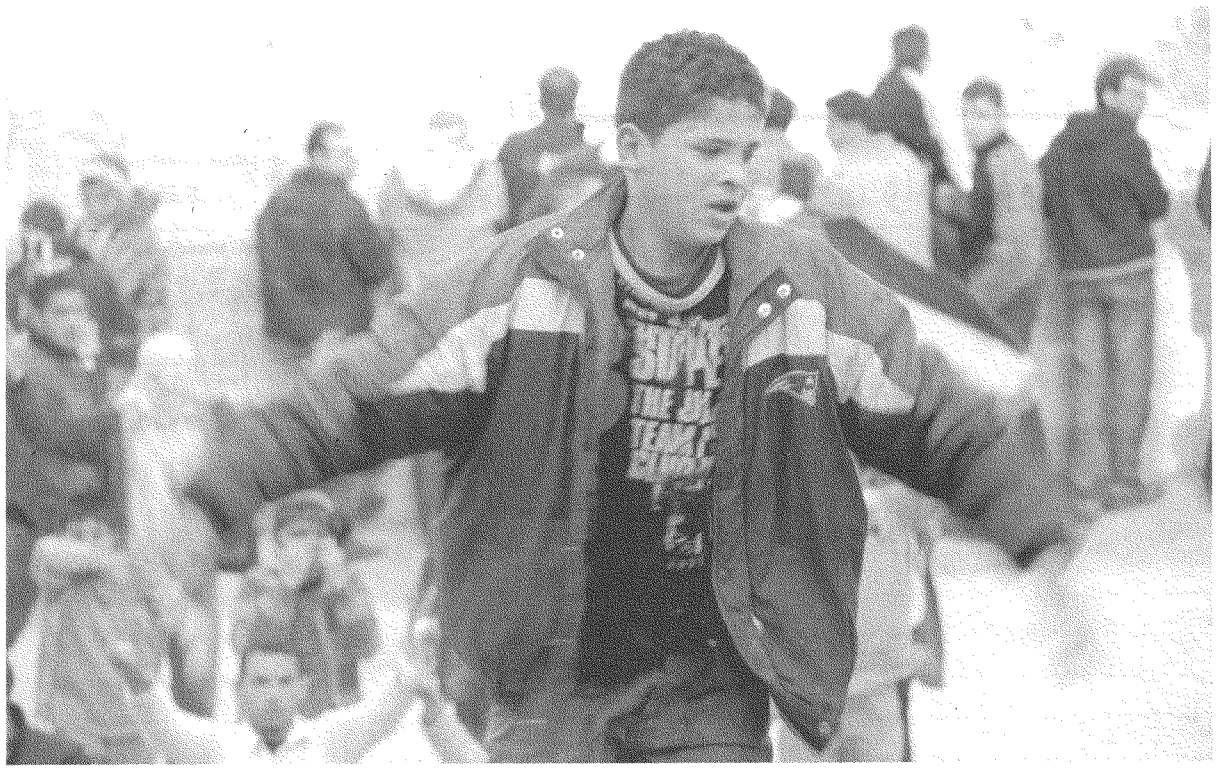

ترفرف روحي هذه الأيّام في سماء تونس، تحيّي مدنَها، وقراها، وفتياتها، وفتياتها، وتنشد مع أهلها الشجعان: «إذا الشعب يومًا...»

والغربة، وأنّنا ببنادقنا سنواصل كفاحَنا حتى نعود إلى فلسطين وتعودَ إلينا.

انتقلتُ وزميلين إلى فندق في العاصمة. وفي ظهيرة اليوم التالي توجّهنا إلى مطار تونس، ومن ثمّ إلى دمشق، لا لأنّ الأسرة هناك فحسب، بل لأنني وآخرين كنّا على يقين أنّ المعركة ستتواصل على أرض لبنان لكنس الاحتلال الصهيونيّ ومواصلة معركة تحرير فلسطين.

في العام ٨٨، غادرتُ إلى تونس، حيث مكثتُ مع أسرتي حتى العام ٩٤ وفي تونس تنقّلتُ من مدينة إلى مدينة، ومن جامعة إلى جامعة، وتعرّفتُ على روح الشعب التونسيّ: حبّه لوطنه، انتمائه لأمّته، تحسّسِه لمأساة شعب فلسطين، وتقديسِه لفلسطين.

واليوم أسعدني أن ترتفع أصواتُ شعراء تونس ملبّيةً نشيدَ الشابّي: «إذا الشعبُ يومًا أراد الحياة/ فلا بدّ أن يستجيب القدر.» من جسد شابّ بسيط، ممتلئ بالكرامة والعنفوان، انطلقت الشرارةُ التي أضرمت النارَ في دولة الطغيان. وها هي تمتدّ إلى كلّ بلاد العرب، حيث النظامُ العربيّ المستنسخ، المستمسخ.

شعبُ تونس أعاد الاعتبارَ إلى الجماهير العربيّة فهي ليست كمًا مهملاً، وهي لم تستسلمْ كما هُيّئ للطغاة وأعداء الأمة. فها هي البشارة تأتي من تونس، من حيث لم يتوقّع. نعم، شعب تونس يُعلّم، ويُلهم، ويعيد إلى ملايين العرب قيمتَهم.

❖ ❖ ❖

ترفرف روحي هذه الأيّام في سماء تونس، تحيّي مدنَها، وقراها، وفتياتها، وفتياتها، وتنشد مع أهلها الشجعان: «إذا الشعب يومًا...»

تونس اليوم خضراءُ خضراء. فما كان يشوّه خضرتَها، ويَغْمر نفوسَ أهلها بالحزن والقهر، قد زال. وها هي خضرتُها تفيض على بلاد العرب، فتُلهمهم، وتبرهن على أنّ شجرة الروح، روح الشعب، تبقى خضراءَ رغم عسفِ الطغاة، وتجويعِهم لأهل البلاد، لزارعي النخيل والزيتون، لمحبّي الحياة إلى حدّ الاحتراق وهو احتراقٌ يعقبه انبعاثٌ نعيشه في تونس، ويمتّد إلى كلّ بلاد العرب

أتابعُ ليلَ نهارَ مجرياتِ الثورة التونسيّة، بفرح وقلق؛ فأنا أعرف حجمَ التحدّيات، وأتوقّع ضراوةَ المؤامرات التي تُدبَّر من أطرافٍ عربيّة مرتعبة، وأمريكيّة وصهيونيّة هالتها ثورةُ شعب تونس، ولذا ستعمل على الالتفاف عليها، ومحاصرةِ رياحها للحيلولة دون اكتساحها نظمَ حكمٍ باليةً تابعة.

❖ ❖ ❖

واليوم، بعد كلّ تلك السنين على كتابة مقالي «تونس خضراء ولكنْ...،» ها أنا ذا أردّد مع الذين آمنوا بالجماهير رغم حالة الانكسار التي انكسرتْ تونس خضراء خضراء. والعقبى للبلاد العربيّة التي صحّرها الفسادُ وأجهزةُ القمع المجرمة.

عمّان

رشاد أبو شاور

كاتب فلسطينيّ.